

في رحاب
إمام دار الهجرة

لفضيلة الشيخ الدكتور
عبد السلام بن محمد الشويعر

الشيخ لم يراجع التفريغ

عبد السلام الشويعر



في رحاب

إمام دار الهجرة

00966558883286

YouTube/alshuwayer9

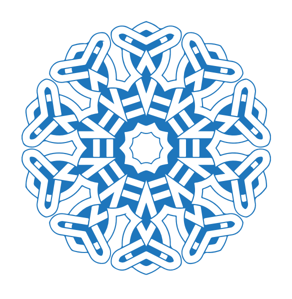
alshuwayer9

للإعلام بالأخطاء الطِّباعية والاستدراكات والاقتراحات؛ يرجى المراسلة على البريد التالي:

tafreeghalshuwayer@gmail.com

سلسلة المحاضرات واللقاءات العلمية لفضيلة الشيخ
(٢٨)

في رحاب
إمام دار الهجرة



لفضيلة الشيخ الدكتور
عبد السلام بن محمد الشويعر

النسخة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه، واقتفى أثره، واستنَّ بسنّته، واهتدى بهُداهُ إلى يوم الدّين.

ثُمَّ أمَّا بعدُ:

-أيّها الإخوة الأكارم-، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وإنِّي أحمد الله عَزَّوَجَلَّ أن جمعنا في هذا المكان الطيب المُبارك، نتذاكر كتابه، وسُنَّة نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ونتفقَّه فيهما.

وإنِّي أحمد الله جَلَّ وَعَلَا، أن جمعنا في هذا المكان الطيب، في بيتٍ من بُيوت الله عَزَّوَجَلَّ، في عملٍ صالحٍ، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

وإنِّي في الحقيقة لا أُخفي فرحي، وسُروري بالاجتماع -بالإخوة الأكارم- في هذا البلد الطيِّب، الَّذي أسأل الله العظيم ربَّ العرش الكريم أن يُديم عليهِ خيره، وأمنهُ، وإيمانه، ورخاءهُ، وأن يجعل ذلك عاماً لبلاد المسلمين عامَّةً بقدرته جَلَّ وَعَلَا، ولئن كان قال «أبو علي الموسي»:

وما عـرَّف الأرجاء إلا رجالـها ... وإلا فلا فضل لتُربٍ على تُربِ

فقد صَدَقَ في ذلك، فإنَّ البلاد لا تَشرُفُ بالتُرَبْ، ولا ترتفع بالحجارة، وإنّما تُحَب وتُعظَّم في النفوس بساكنيها وقاطنيها من الرجال

وما عـرَّف الأرجاء إلا رجالـها ... .

وفي هذا البلد الطيّب من الإخوة الأفاضل والرجال الأكارم من ينوء بحمل بعضهم أهلُ القرى، وذاك من فضل الله عَزَّوَجَلَّ الذي يمّن به على عباده الصالحين.

-أقول أيّها الإخوة- إننا في هذه الليلة نتذاكر موضوعًا عظيمًا، موضوعًا ذا تشعُّبٍ وتفصيلٍ كبير، إنَّه حديثٌ عن إمامٍ قُرِنت الإمامة باسمه، ورُوي في الأثر «أنَّه يُكاد أن تُضرب الإبل في مشرق الأرض ومغربها، فلا يجدون عالمًا إلَّا عالم المدينة»، إنَّه عن إمامٍ رفع الله عَزَّوَجَلَّ ذكره، وأعلى اسمه، فأصبح المتتسبون له نسبة تفقهٍ عددٍ كثير، وذاك فضل الله جَلَّوَعَلَا يؤتيه من يشاء.

❑ **إنَّه حديثٌ عن الإمام «مالكٍ بن أنس» رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ورَحِمَه**، ولو رام المرء أن يتحدّث عن كل جوانبه، وعن مذهبه وتفصيلها، لكان الحديث في ذلك طويلاً مُتشعِّبًا، ولكان حديثًا الإحاطة به من الصعوبة بمكان، ولكن في هذه العُجالة، وهذه المحاضرة التي كما قال الإخوة: يلزم ألَّا تجاوز أربعين دقيقة، **سيكون حديثنا عن ثلاث شُعَبٍ**:

❁ **سأخصُّ الشُعبة الأولى من هذه الشعب الثلاث، عن مواقف من الإمام «مالك» رَحِمَهُٱللَّهُ تَعَالَى في طلب العلم بخصوصه.**

❁ **ثمّ سيكون الحديث الثاني عن مذهبه رَحِمَهُٱللَّهُ تَعَالَى، وما تميَّزَ به وما خُصَّ فيه.**

❁ **وثالثها عن التَّمذهب بهذا المذهب أو بغيره من المذاهب، وموقف أهل العلم من ذلك الطريق.**

❁ **أمَّا الأمر الأول: وهو الحديث عن الإمام «مالك»**، فإنَّ الإمام «مالك» رَحِمَهُٱللَّهُ تَعَالَى، الحديث عنه حديثٌ عن بحرٍ لا ساحل له، وعن جبلٍ عظيمٍ يَصعُبُ مُرتقاه، ويَسهُلُ النظر إليه؛ لأنَّه كان في زمان أدرك أهل زمانه التابعين، ومع ذلك فاق علمه كثيرًا من نظرائه،

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، لقد جاءه بعض طلابه قاصدين له من العراق وآخرين قاصدين له من بلاد الأندلس، لا رغبة لهم إلّا بهذا الإمام راغبين علمه، وراجين النهل من معين فضله وروايته.

❐ ووقفاتي مع هذا الإمام وآثاره وقفاتٌ لطالب العلم؛ ليستنير بها لينال من العلم بعضه، وذكر الصالحين ممّا هو محبَبٌ للصالحين، وخصوصًا إذا كان أولائك الصّالحون قد جمع الله عَزَّوَجَلَّ لهم بين خصيصتين:

- خصيصة العلم.
- وخصيصة العبادة.

وهذان اجتمعا للإمام «مالك»، فقد ذكر الإمام «الذهبي» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، أنّ الله عَزَّوَجَلَّ قد جمع لـ «مالك» **خمسة أمور قلَّ ما تجتمع في غيره منها**:

- الاتفاق على علوّه في الحديث، وثقته في الرواية.
- ما أتاه الله عَزَّوَجَلَّ من الفهم والفقه، وحسن النظر في الأدلّة.
- ما جعل الله عَزَّوَجَلَّ له من وفرة العقل وحُسنِ الفهم، والتصرف في الأمور، فإنَّه كان عاقلًا لبيبًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى.
- ما اتفق عليه الناس من ديانته، وسمته، وحُسن تبتله وعبادته لله عَزَّوَجَلَّ.

وهذه الأمور قلَّما تجتمع لمرءٍ في هذا الزمان، بل وما قبله من الأزمنة، وقد ذكر العلّامة «ابن القيم» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: «أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ إذا جمع لمرءٍ بين العبادة والعلم -وأعني بالعلم، العلم بأحكام الله عَزَّوَجَلَّ- فإنَّ هذا من أندر ما يكون» **يقول العلامة «ابن القيّم»**: «فإذا رأيت شيخًا قد جمع الله له بين العبادة والعلم، والصلاح والفقه فأعضض عليه

بنواجذك، وأقبض عليه بيديك كلّها، فإنّه كالكبريت الأحمر قلّة في أهل الزمان» قاله «ابن القيم» في القرن الثامن من الهجرة.

❑ أقول إنَّ من المواقف عن الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، وأبدأ بهذا الموقف:

❁ **أنَّه قد ابتدأ طلبه في سنٍ صغيرة**، فذكروا عنه أنَّه لمَّا بلغ الثالثة عشر من عمره، أشارت عليه أُمّه بطلب العلم والحديث -أو سألها ذلك- فأتت إليه أُمه فعمّمته، وألبسته ثيابًا طيّبةً وطيَّبته، ثم قالت له: «الآن اذهب للمسجد، وأطلب العلم في حلقات مسجد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، **وفي هذه القصَّة لنا معها وقفات:**

❁ **الوقفة الأولى**: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يبارك فيمن طلب العلم في صغره، ويرزقه من التوفيق والسداد ما لا يُرزقُه من طلب العلم في الكبر، وقد ذكر العلامة «جلال الدين السيوطي» في مقدمة كتابه «الأشباه والنظائر» كلامًا نفيسًا طيبًا، فيمن طلب العلم في صغره، وكيف أنَّ من اجتهد وَجَدَّ في صغره فهو المُوَفَّقُ بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، وليس معنى ذلك أنّ المرء في كبره لن ينال شيئًا، بل إنَّ تاريخنا مليء بأقوامٍ لم يطلبوا العلم إلَّا على كبر فما أبو «محمد بن حزمٍ» الذي ملأ ذكره الأسماع، ولا «أبو بكرٍ القفّال» من أهل «خُرَاسان» إلَّا أقوامٌ قد طلبوا العلم، وقد جاوزوا من العمر سنينَ كثيرة، ولكنَّ في الغالب إنَّما يُرزق المرء التوفيق وعلو القدم والكعب في العلم إذا اتَّجَه للعلم صغيرًا، وفي الغالب لا يتوجه المرء صغيرًا، إلَّا بتوجيهٍ من والديه، فالوالدان لهما الفضل بعد الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك، وكم من أبٍ وجَّه أبناءه لطلب العلم، ودلَّهُم عليه، وحثّهم على تحصيله فكان ذلك سببًا لرفعة أبنائه، وبعد ذلك رفعةٌ لأبيهم، فإنَّ الأبناء بركةٌ على آبائهم إذا وفَّقَهُم الله عَزَّوَجَلَّ، فها هي أم الإمام «مالك»

تُطَيِّبُ ابنها، وَتَحُثُّهُ على الحضــور لحِلَق العلم؛ ليتعلّم، ويَتَدَرَّس، فكان الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى عَلَمًا بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ -قبل كل شــيء-، ثُمَّ بإرشــاد أُمّه ودلالتها له لطلب العلم.

ومن أعجب القصــص في حثِّ الآباء الأبناء على طلب العلم ما ذكره أهل الســير، عن «أبي الوقت السـجزي» وهو من أعلى الناس إسنادًا في «صـحيح البخاري» أنَّهُ قال: «أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد بارك لي في رواية صــحيح البخاري؛ بســببِ حثِّ أبي لي على طلب العلم».

وذَكَرَ أنَّه لمَّا خَرَجَ من ســجســتان؛ طالبـًا لرواية هذا الكتاب العظيم أعني: «صــحيح البخاري»، خَرَجَ هو وأبوه، فكانا يمشــيان في الطريق، وإنَّما منعهم من الركوب ضــيق ذات اليد، وقلَّةُ المال عندهم، قال: «فكنت في مبدأ الطريق اشــتكيت لوالدي التعب، فأمرني والدي أن أحمل معي صـخرتين، فلما سِـرّتُ فَرَاسِـخَ مُعينة، اشـتكيت له تعبًا أكثر، فأمرني بأن أرمي أحد الصخرتين عن ظهري، فلمَّا رأيت الثقل قد خَفَّ عني، نَشطْتُ بعض الشيء، فمشـيت حتى تعبت فلمّا اشـتكيت له التعب، أمرني أبي بأن أرمي الحجر الثاني عن ظهري، فَنَشطْتُ بعض الشيء، فمشيت فراسخ بعد ذلك ثُمَّ اشتكيت التعب، فأمرني أنّ أركب على ظهره، فســار بي أبي وهو حاملٌ لي على ظهره، حتى وصــلنا إلى تلك البلاد، فَرَوِّيتُ «صحيح البخاري» فكان إسناده من أعلى الأسانيد، وهو الذي اعتمده «اليونيني» في نسخته، وهو من تلاميذ الشيخ «تقي الدين» وهذه النسخة هي الموجودة في أيدي الناس الآن، وهذا من بركة العلم، فإنَّ من طَلَبَ العلم في صغره رَزَقَهُ الله عَزَّوَجَلَّ التوفيق فيه، والسداد في كِبَرِه.

❁ الوقفة الثانيـة: أنَّه كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى يبذل فيه جَهدَه، ولا يأخذ فيه راحةً ولا

فسحة، فذكر «القاضي عياض»: أنَّ أهل المدينة لمَّا انصرفوا مرّةً من صلاة عيد، قال الإمام «مالك» في نفسه: «اليوم يكون «محمد بن شهاب الزهري» لا قاصد له -لأن اليوم يوم عيد، والناس مشغولون بعيدهم وفرحهم- فأتيت بابه، وجلست عند عتبة داره فجلست هنيهة فإذا بجاريةٍ له تخرج فرأتني، فقال: هل عند الباب أحد؟، فقالت له: نعم، إنَّه مَولَاكَ الأشقر» -وكانت تظنه مولىً له مِن كَثرةِ ملازمته إيَّاه- فأدخله «محمد بن شهاب الزهري» رَحِمَهُ اللَّهُ تعَالَى عنده، فجلس معه وأسمعه أربعين حديثًا فحفظها. وكذا طالب العلم لا يَكَلُّ ولا يَمَلُّ، ولا يَتْعب، ولا يجهد من طَلَبِه العلم، ومن تَعب في طلب العلم في أوَّل عُمره رُزِقَ فيه السداد في آخره، وقد قال «محمد بن شهاب الزهري» شيخ الإمام «مالك»، وقد روى عنه حديثًا فكان من رواية الأكابر عن الأصاغر، قال: «العلم إنّ أعطيته كُلَّك أعطاك بعضه». فالعلم عظيمٌ حجمه، بعيدٌ ساحله، يحتاج من المرء تعبًا وبذلا.

وها هو «عبد الله بن عباس» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حَبْرُ هذه الأمّة، وتُرجُمَانُ قرآنها، كان يأتي إلى بيوت كبار الصحابة، فيبيت عند عتباتهم، ويُمسك بخطامِ دابة «معاذ بن جبل» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول له «معاذ»: «يا ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتفعل هكذا وأنت ابن عم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فلو آذنتنا لأتيناك؟»، فقال له «ابن عباس» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنَّا كذلك نفعل بعلمائنا».

المرء إذا بذل نفسه لشيخه، وأعطاه، وتحمل غضاضته، وصبر على ذلك، فإنَّ هذا هو الذي يُرزق العلم، لذلك جاء أنَّ «مالكًا» قد ذكر أنَّ شيخه «نافع» مولى «عبد الله بن عمر» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، و «نافعٌ» كان أصبحيًا من بني أصبح من حِميَر، و«نافعٌ» مولى من موالي «عبد

الله بن عمر»، قال: «كنت أتبع «نافعـًا»، وأتتبعه في أَزِقَّةِ الطُرُقات، فإذا التفت هِبتُ أنْ أسـألـه عن حديثٍ من أحاديث «عبدالله بن عمر»، حتى يَصِـلَ إلى بيته وأعلم أنَّه قد رضـي مني بأنّ أسأله، فأسأله حديثًا أو حديثين، أكتفي بهما في يومي».

فالمقصــود: أنَّ المرء يحرص على أن يكون كهذا الإمام العظيم باذلاً لعمره ووقته في تحصيل هذا العلم.

❁ **الوقفة الثالثة:** ما ذكر عن نفســه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى أنَّه تفقَّه على «ربيعة عبد الرحمن» ثُمَّ تفقّه على «ابن هُرمز»، **قال:** «فمكثت عنده ثماني سنين لا أعرف شيخًا غيره».

❐ **ومن هذا الأثر نسـتفيد:** أنَّ المرء في أول طلب علمه، وحداثة سِـنِّه، وشَـرْخِ شـبابه أنَّه يحرص على عدم الإكثار من مشــايخه، وعلى عدم الإكثار من النظر في الكتب، فإنَّ المرء في أوَّل عُمره يتشتت ذهنه، ولا يستطيع إدراك كل ما يُقال له، فإذا كان له شيخٌ واحدٌ، ومعلِّمٌ فردٌ فإنَّه يكون بأمر الله عَزَّوَجَلَّ ســببـًا للتوفيق، فإذا رُزِقَ من العلم نصــيبـًا، ونال منه حظـًا زاد من الأشـياخ بعد ذلك، وهذا ما كان يُوصـي به مشـايخنا، وهو معروفٌ عند أهل العلم مُنذُ القِدَم، أنَّ المرء إذا ابتدأ في طلب العلم ألّا يكون له من المشــايخ إلَّا واحدًا حتى تسـتوي سُـوقه، ويقوم على سـاقه، ثم بعد ذلك ينتقل في القراءة؛ لأنَّ كثيراً من طلبة العلم يبتدأ بقوّةٍ على غير هُدى، فيكون كالمُنبت لا أرضـًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

ممَّا جاء عن الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى في -مسألة طلب العلم-، أنَّ رجلًا من قُريشٍ جاءه، فقال: «يا أبا عبد الله إنِّي أريد أن أســمع عليك الحديث»، فقال له الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالَى: «يا ابن أخي تعلَّم الأدب، فإنَّ الناس أحوج للأدب منهم إلى العلم،

فإذا تعلّمت الأدب فعليك بالعلم.» الأدب هو الخُلُق، وقد بيَّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ أحظَّ الناس بمجاورته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنة أكرمهم خُلُقًا، فثَبَتَ عن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال كما في «المُسنَد» وغيره: «**أَنَا زَعِيمٌ لِبَيت فِي أَعَلَى الجَنَّة لِمَن حَسُنَ خُلُقه**» والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقامه في أعلى الجنّة، في الفردوس الأعلى، في مقامٍ لا يكون إلَّا لشخصٍ، فمن كان دونه فهو في أعلى الجنّة وهو مجاورٌ لها.

فطالب العلم يلزمه أن يحرص على تعلُّمِ الأدب، والناس للأدب أحوج منهم لكثيرٍ من العلم؛ لأنّ الأدب هو الأصل، فإذا كان المرء ذا خُلقٍ وذا عقلٍ، فإنّه يُوفَّق -بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ - لشيءٍ كثير.

ومن الأمور التي ذكرها الإمام «مالك» لطالب العلم، أنَّه قال: «يجب على طالب العلم أن يكون وقورًا، معروفًا بالعبادة، معروفًا بقيام الليل، وأن يكون له حظٌّ من العبادة» وهذا موافقٌ لمَّا أُثر عن «ابن مسعود» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما عند «الدارمي» بإسنادٍ جيِّد أنَّه قال: «يجب على صاحب القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبصمته إذ الناس خائضون، وبذكره إذا الناس ساكتون».

فطالب العلم لكي يوفَّق، عليه أن يُثَبِّتَ عِلّمَهُ بالعبادة وبالتهجد، وأن يجعل له وردًا من الليل، ووردًا من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ يقرأه في كل يوم، ويجعل له من أبواب الطاعات ما يكون مُعينًا له -بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ- على تحصيل العلم.

وقد جاء في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، إنَّ العَالِمَ على الحقيقة هو من خَشِيَ الله وخافه واتقاه، وخشية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدل عليها أن يكون

المرء له من العبادات ما يدلُّ على صِدْقِ الخشيةِ في قلبه.

وقد جاء عن «ابن مسعود» رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّه قال: «إنَّما العلم الخشية، إنَّما العلم الخشية» فالعالم على الحقيقة هو من خشي الله عَزَّوَجَلَّ، وخافه، وأكثر من عبادته جَلَّ وَعَلَا، والانقطاع إليه، والتبتل له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وممَّا جاء عن الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالَى -في مسألة العلم-: ما ذكره عنه «سفيان بن عُيَيْنة» فإنَّه قال: «ما رأيت أشدَّ من الإمام «مالكٍ» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعالَى في البحث عن الشيوخ، فإنَّه كان لا يسمع العلم إلَّا عن أهل العلم الكبار»، وقد ذكر الإمام «مالك» عن نفسه أنَّه قال: «أدركت كذا وكذا من المعممين في مسجد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو أؤتمن أحدهم على قناطير من ذهبٍ لأدّاها ما أخذت عنهم من العلم شيئًا».

وكان يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: «إنَّ هذا العلم دينٌ، فانظروا عمَّن تأخذون دينكم» نعم، إنَّ هذا العلم الشرعي دين، فلينظر المرء عمَّن يأخذ دينه، ومن خصائص هذا الدّين أنّه يؤخذ عن الأشياخ، وأن يكون الشيخ موفقًا مسدّدا، لذلك في مقدمة «صحيح مسلم» عن «عبد الله بن المبارك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، أنَّه قال: «الإسناد من الدّين، فإن قيل عمَّن بقي».

فالمرء يحرص أن يكون شيخه ذا تُقًى لله عَزَّوَجَلَّ، وأن يكون ذا خشيةٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يكون صالحًا وعلى هدى وعلى سنَّة، وأن يحرص أن يكون شيخه متوسّعًا متبحّراً في العلم، كما كان الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالَى يحرص على الانتقاء في أشياخه، فلا يأخذ من الأشياخ إلَّا من كان ذا دينٍ وعلمٍ وسُنّةٍ وهدى، لذلك لما جاءه بعض أهل الأهواء، امتنع الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى من مجالستهم فقال له بعضهم: «يكلّمك

ولو بكلمة»، فقال: «ولو بربع كلمة» فيحرص المرء على اختيار أشـياخه علمـاً وهدىً وتُقىً.

❁ **الوقفة الرَّابعة:** أنَّه كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، يُوَقِّرُ كِبَار العُلَمَاء ويُجِلُّهُم ويُعظِّمُهُم، وقد جاء عن «عبدالله بن عباس» رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنّه قال: «إنَّ من بركة هذا العلم أن يؤخذ عن الأكابر» و رويَ بنحوه عن «ابن مسعود» رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

يقول الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: «ما أفتيت ولا جلسـت في مسـجدِ رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى شَـهِدَ لي سـبعون مُعممًا ممن يجلس على سـواري مسـجد رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنّي أهلٌ للفتوى» **قال «ابن ناصـر الدين الدمشـقي»** -عندما ذَكَرَ هذا الأثر-: «ولم يكن يَتَعَمَّم في ذلك الزمان إلاّ الفقهاء».

فانظر كيف أنَّ الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى عَرَفَ قَدْرَ أشـياخه ولم يتقدّم بين يديهم، ولم يَتَصَدَّر للفُتْيَا ولا التدريس، حتى شَهِدَ له أهلُ العلم بذلك، ولا يَعرفُ الفضل إلَّا أهله، ولا يعرف الجود إلَّا أهل الجود، فكذا العلم لا يعرفه إلَّا أهل العلم من الفقهاء ونحوه.

وهذا غيضٌ من فيض من سيرة في هذا الإمام المُبارك الذي جعل الله ذكره ملء السـمع والبصر، وجعله يطير بين المشرق والمغرب، حتى كان في عصره تلامذةٌ له في أصقاع الدنيا وهو لم يجاوز بلده، وهذا لعلَّه صـدقـاً في نبوءة ما روي عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إن صَـحَّ إسناده: «**تُوشَكُ أَكْبَادُ الإبل أن يَضْرِبوا فلَا يَجِدُوا إلّا عالمـًا المَدِينة**».

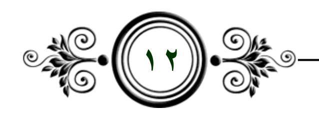
❁ **والشـعبة الثانية مما أردت الحديث عنه هو عن مذهب الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى**، الإمام «مالك» مَيَّزَهُ عَزَّوَجَلَّ بميزاتٍ ليسـت بغيره، فمن ذلك أنَّه أدرك طبقة التابعين،

وقد جاء عن بعض المحدثين، أنه قال: «إنَّ مالكـًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى أدرك نحوًا من ستين تابعيًا»، فيكون بذلك داخلاً في الحديث الصحيح عن المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما قال: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرنِي، ثُمّ الذِينَ يلُونَهُم، ثمّ الذِينَ يَلُونَهُم**» والمحققون من أهل العلم يُبينون أنَّ المراد بالقرن هم الطبقة من أهل الزمان، فأفضل الناس طبقةً الصحابة الذين أدركوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم قرنه، ثُمَّ تابعوهم، ثُمَّ تابعوا تابعيهم، والإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالَى ممن حاز السبْق في ذلك، وأدرك فضل هذا الحديث، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

❁ **الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى من ميزاته** أنَّه كان مُعَظِّمـًا للسنة مُبَجِّلاً لها، حتى جاء عنه أنَّه كان لا يُحَدِّثُ بحديثِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلّا وقد تَطَهَّرَ، وتوضأ، وتَطَيَّبَ، ثُمَّ جَلَسَ مجلسهُ مُستويـًا، مُستقبلًا القبلة ويقول: «إنّي أستحي أنّ أُحدّث بحديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هيئةٍ غير هذه الهيئة».

❁ **وكان الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى من تعظيمه بسنَّة المُصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أُثِرت عنه كلمة حتى غدت مثلًا سائرًا وقولًا رائجًا بين الناس، حينما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعالَى: «كلٌّ يؤخذ من قوله ويرد إلّا صاحبُ هذا القبر» **يعني**: نبينا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

من ميزات هذا الإمام العظيم تعظيمُهُ للسنَّة، وإجلاله لها، وإكباره إيَّاها، وحرصُهُ على روايتها، وعلى تعليمها، وعلى بَذلِهَا، والخير كُلُّه في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسنَّة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كيف لا، وهما وحيٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال ربنا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ – ٤] فسنَّةُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وحيّ الله عَزَّوَجَلَّ له، لكنَّها دون القرآن مَنزِلَةً ولا شك، فالقرآن مُتعبَّدُون بلفظه دون السُنَّة، وإنَّما هي



من وحي الله، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ ، فلذا المؤمن المُتبع للإمام «مالك» على الحقيقة، هو المُعَظِّمُ للسنَّة و المُبَجِّلُ لها، الذي إذا جاءه شيءٌ من سنَّة المُصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ قال: على العين والرأس، سمعًا وطاعةً لله ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ **ومن خصائص مذهب الإمام «مالك»، أنَّ الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى،** كان على طريقة السلف الصالح في المُعتقد، وكان ينهى عن عِلْمِ الكلام، وكذا كان أصحابه فـ«محمد بن وضّاح» ، و «أبو بكر الطرطوشي» و«ابن أبي زيد القيرواني» و«القاضي عبد الوهاب» و«أبو بكر الأبهري» و«ابن القصار» و «ابن عبد الحكم» ... وغيرهم من متقدمي أهل العلم الأجِلَّة، الأئمة العظماء الكبار، كان لهم مواقفٌ عظيمة، ودروسٌ مُستفادةٌ جليلة، في حرصهم على هذا الدين، وعلى إنكار مُحدثاته، وهذه ميزةٌ عظيمةٌ كما ذكر «محمد بن محمد الراعي الأندلسي» ثُمَّ «المصري» في كتابه «انتصار الفقير السالف، بترجيح مذهب الإمام مالك»، فإنَّه ذَكَرَ أنَّ من ميزات مذهب الإمام «مالك» أنَّ مُتقدمي الإمام «مالك» ومتقدم أصحابه كانوا على السُنَّةِ والهدى، ولم يكن يدخل فيهم من الأهواء شيئًا مُطلقًا.

❁ **مذهب الإمام «مالك» على طريقةِ أهل العلم جميعاً في تقديم الكتاب والسُنَّة أولًا،** فهما حُجَّةٌ عنده، وأصول الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى مُدَوَّنَةٌ عند أصحابه، **وهل نصَّ عليه الإمام «مالك» أم لا؟** يرى «أبو بكر بن العربي» و«القاضي عياض» رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ تَعَالَى أنَّ الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى قد نَصَّ على أُصوله في كتابه «الموطأ»، ولكن الجمهور من فقهاء المالكية يرون أنَّ «مالكًا» لم يَنُصّ على شيءٍ من أُصوله، وإنَّما استُقْرِأت استِقْرَاءً، فالأصول المُتفَقَّةُ عليها بين العلماء في أصول الاستدلال، هي الكتاب والسُنَّة والإجماع

والقياس، وكل هذه الأمور الأربعة نَصَّ عليها الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى في كتاب «الموطأ»، ولكن المالكية استنبطوا من طرائق وكلام الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى أصولًا تزيد على هذه الأمور الأربعة، **منها ما يُسمَّى**:

❁ **أوَّلًا بالعمل المطلق**، فإنَّ الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى كان يرى أنَّ عَمَلَ أهل المدينة **أي**: في زَمَنِه هو، حُجَّةٌ؛ لأنَّه جَمّعٌ يروون عن جَمّعٍ، عن أبناء المهاجرين والأنصار، الذين أدركوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان ما تواتر بينهم واستفاض عندهم من عمل، فإنَّه يكون حُجَّة، يقول «شيخ الإسلام ابن تيمية» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: «وقول الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى في عمل أهل المدينة هو من السُنَّة»، إذ كان «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالَى قد أدرك التابعين، فكان في عصره عَمَلُ أهل المدينة قريبٌ من السُنَّة، لذا كانت أصول الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى من أقرب الأصول إلى السُنَّة.

❁ **ومما اختصَّ به أصول مذهب المالكية ما يُسمَّى بـ: مراعاة الخلاف**، وهذا الأصل إنَّما يوجد عند فقهاء المالكية والحنابلة فقط، فإنَّهم يُعنَون بمراعاة الخلاف، والاهتمام بذلك اهتمامًا بيِّنًا، ولمراعاة الخلاف حالات إمَّا قبل الإفتاء وإمَّا بعده، وإمَّا حال وقوع النازلة وإمَّا قبلها، ولذلك تفسيرٌ مُبيَّن في كُتُبِ الأصول.

❁ **ومن أصول المالكية التي تفرّد بها ولم يوافقهم عليها إلَّا بعض فقهاء الحنابلة، العناية بالاستصلاح** عنايةً بيِّنة، فإنهم يُعْنَوْنَ بالاستصلاح والمصلحة، ويجعلون لذلك مبحثًا طويلًا مُفصَّلًا.

❁ **ومن خصائص هذا المذهب أيضًا** أنَّهم في قول جماهيرهم، كما قال «عبد القادر

الفاسي» في كتاب «رفع العتاب والملام»: «أنَّهم يرون جواز الإفتاء للضرورة والعمل بالقول الضعيف» ولا يرى هذا المذهب إلَّا فقهاء المالكية والحنابلة.

هذه بعض أصول المالكية وقد عدَّها بعض المتأخرين سبعة عشر دليلًا، وإنَّما أردت الإجازة والاختصار في ذلك؛ لتكون مُقدِمَةً بين حديثنا في الغد في شرح كتاب «الرسالة» لـ«ابن أبي زيد القيروان» -عليه رحمة الله- تَعَالَى.

الأمر الثالث والأخير: وهو مسألة التمذهب وهل يصح أن يكون الشخص مُتمذهبًا أم لا؟

هذه المسألة، وهي مسألة التمذهب مما كَثُرَ فيه الحديث مؤخراً، وطال فيه التناظر والمجادلة، وأهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى منذ القرن الثالث الهجري وإلى عصرنا هذا وهم يعتمدون التمذهب، **والفائدة من التمذهب أمور:**

الأمر الأول: أنَّ التمذهب والانتساب لأحد من المذاهب الأربعة المتبوعة يكون سببًا للتفقه، وقد ثَبَتَ في الصحيحين من حديث «أبي هريرة» وعند أهل السنن، من حديث «أبي الدرداء» أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن سَلَكَ طَرِيقًا يلتَمِس بِهِ عِلمًا سَهَّلَ الله لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّة**» **قال أهل العلم**: «وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طريقًا، هي نكرة في سياق الإثبات، والنكرة في سياق الإثبات تَعمّ عند كثير من الأصوليّن». فدَّلنا هذا الحديث على أنَّ العلم له طرائقٌ مُتعدِّدَة، ووسائلُ مختلفة، كلها تؤدي للنتيجة المرجوة وهو العلم، ومن هذه الوسائل العظيمة التي ارتضاها العلماء قرونًا متطاولة، وسنينًا مُتعدِّدَة، التفقّه عن طريق المذاهب المتبوعة، فإنَّ المذهب قد حُرِرَت أُصوله -وخصوصًا المتبوعة أعني الأربعة- وبُيِّنَت معالمه، وتتابع العلماء في تحقيق مُفرداته وفُروعه، حتى لا تكاد يخرج

فرعُ عن أصله، ولا تُشذ مسألة عن مناط، وهذا يَدُلَّ على موافقة هذه المسائل الأصول.

فطالب العلم يبتدئ بمذهب يسير عليه أهل بَلَدِه، فَيتَفَقَّهُ به، وَيَتَعَلَّمُ عن طريقه، ثُمَّ بعد ذلك إن وفقه الله عَزَّوَجَلَّ وصحَّ له النظر، فإنَّه يجتهد بعد ذلك، **لذلك يقول أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى**: «إنَّ المرء إذا راك من التفقُّه في دين الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ للتفقّه ثلاثُ طرائق» وقالوا: «ونُحذرك من الرابع، فإنّ المرء أولُ ما يبدأ بالتعليق، ثُمَّ إذا انتهى من التعليق يُتبِعُهُ بالتحقيق، ثُمَّ إذا انتهى من التحقيق يُتبِعُهُ بالتدقيق» قالوا: «وإيَّاك والتلفيق، فإنّه لا يُكسب المرء فقهًا ولا مُلكة».

قولهم: أول ما يبدأ به المرء بالتعليق أي: يتعلم المرء فروعًا مُجَرَّدة؛ ليستظهر المسائل ويعرف النظائر، ويُحيط بكل المسائل في جميع أبواب الفقه، وبعضُ طلبة العلم لا يبتدئ بذلك، فتراه مُجدًا فاهمـًا في بعض أبواب العبادات، فإذا جاءته المُعاملات، أو سُئل واستطرق مسائلُ في الجنايات، رأيته غير عالمٍ بها؛ والسبب أنَّه ابتدأ أبواب العبادات من غير تعليقٍ والعُمرُ قصير، والعلم كثير.

فإذا عَرَفَ المرء المسائل مُجردةً عن الأدلّة انتقل بعد ذلك لمعرفة هذه الفروع بأدلَّتها، **وهذا ما يُسمَّى بالتحقيق**، فيأخذ المسألة بدليلها والفرع بتعميمه، فيعرف الحُجَّة فيه.

ثُمَّ ينتقل بعد ذلك لمرحلةٍ ثالثةٍ، وهو ما يُسمّى بالتدقيق، فيعرف المسألة بدليلها مع الخلاف، سواءً كان الخلاف عاليـًا أو نازلًا، ونعني **بالخلاف العالي**: أن يعرف خلاف الأئمة الأربعة المتبوعين، أو خلاف الصحابة الأئمة المُبجَّلين المُتقدمين، ونعني **بالخلاف النازل**: الخلاف في داخل المذهب، أو عند المُفتين المُتأخرين من أهل الزمن.

قالوا: «وإيَّاك والتلفيق» فإن التلفيق لا يكسب المرء فقهًا ولا تفقّهًا، وإنّما يصلح التلفيق في الاجتهاد والفتوى فحسب، فالمرء عندما يَتَفَقَّه عن طريق الفتاوى، والأخذ من زيدٍ وعمرو.. ونحو ذلك فإنّه لا يكتسب مُلكة.

❐ **وإنِّي أُريد أنّ أُبيِّنَ أمرًا مُهمًّا، وهو:** أن الفقه مَلكة لا يكتسبه كل امرئ إلَّا بتعبٍ وَجِدٍّ، ومن أعظم ما قيل في ذلك ما جاء عن الإمام «سَحنُون» -أو سِحنون أو سُحنون فإنَّ سيّن اسمه تُنطق مثلثةً بالرفع والفتح والكسر-. كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى فقيهًا مُبَجَّل حتى عُدَّ ثالث فقهاء المالكية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، بل هو فقيه القيروان وإمامهم في ذلك الباب.

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى من شِدَّة فقهه، قال بعض أصحابه: «إنَّه لو فصد لخرج مع دمه شيءٌ من الفقه»، وهذا للملكة التي جُعِلَت له، والفقه لا يُنال إلَّا بالدُرّبَة كما قال «القباب» من فقهاء المالكية.

فالمقصود: أنَّ الفقه لابدَّ لهُ من بذلٍ وجهدٍ، ولا يناله المرء إلَّا بعد توفيق الله عَزَّوَجَلَّ، والحديثُ في ذلك يطول.

- أعود لحديثي الأول فأقول: **إنَّ التمذهب:**

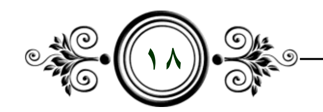
۞ **فائدته الأولى:** أنَّه طريقٌ للتفقه، وهو طريقٌ جرَّبه علماءٌ كثر، وسلك هذا المسلك كثيرون، فنجح معهم هذا الطريق، وما كثيرٌ من أعلام الأمّة وفقهائها إلَّا ابتدأوا بهذا الشيء.

۞ **الفائدة الثانية:** أنَّ المرء لابدَّ وأن يقف أحيانًا، فلا يُحيرُ جوابًا، ولا يُحسن اختيارًا في مسألة، ومن ذاك الذي يجتهد في كل مسألة فقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- وقد أدركوا الوحي، ورأوا النبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتوقفون في المسائل، بل إنَّ

الإمام «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى سُئِلَ مرةً عن سِتين مسألة فأجاب فيها كُلَّها بـ: لا أدري، وكذا أُثِر عن الإمام «الشافعي» و«أبي حنيفة» و«أحمد».

فالمقصود: أنَّه ما من امرئٍ يجتهد في كل المسائل، ولا يَصُحُّ له النظر في جميعها، فإذا كان المرء متوقفـًا، والوقف كما قال «سيف الدين الآمدي»: «ليس مذهبًا» فما يفتي به المُفتي، وما يقوله المُعلِّم إذ ذاك وهو متوقف في المسألة، فحينئذٍ لابدَّ أنَّ نُرجِعَهُ للأصل، فيُفتي بمذهبه الذي تفقّه به، فيكون الفائدة من التمذهب في هذه الحالة أن يُفتي حالة وقفه، والناس بين مُقِلٍّ ومُستكْثِرٍ في هذا الباب، وكلَّما زاد المرءُ عِلماً كلَّما زاد توقفه، ويُعجبني كلمة للإمام «الشافعي» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فإنَّه كان يقول كلمةً معناها: «إنَّ العلم أربعةُ مراحل، المرحلة الأولى وهي أقصرها من نالها وتحصَّل عليها ظنَّ أَنَّهُ أعلمُ الناس، والمرحلة الثانية إذا نالها المرء، عَلِمَ أنَّه قد فاته شيءٌ من العلم، وأمَّا المرحلة الثالثة فإنَّ المرء إذا نالها علم أنَّ ما فاته من العلم أكثر بكثيرٍ مما نال، وأنَّ ما لم يُحَصِّلهُ أضعافٌ مضاعفة لما عَلِم، فحينئذٍ يخافُ ويهاب ولا يتجرأ على فتوى، ولا يُقدم على اجتهادٍ إلَّا بعد تردُدٍ، واستخارةٍ، ورجاءٍ لله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا المرحلة الرابعة فإنَّه لا ينالها أحد ولا يتحصَّل عليها متحصل، فالمرء إذا رأيته وقّافًا عند الكتاب والسُنَّة، حريصًا على عدم الاستعجال في الفتوى، فاعلم أنّ هذا دليلٌ على دينه أولاً، وعلى سعة علمه ثانيًا».

جاء أنَّ الإمام «أحمد» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى كان كثيراً إذا سُئِلَ قال: «لا أدري» فسُئل تلميذه «أبو بكر الأكرم» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى لِما كان الإمام «أحمد» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعَالَى يُكثر من «لا أدري» قال: «لعلمه بالخلاف»، فأهل العلم إذ كانوا يحذّرون من ترك لا أدري ومن التجرؤ على



الفتيه، قال «محمد بن عجلان» شيخ الإمام «مالك»: «إذا تَرَكَ العَالِم، أو الفقيهُ لا أدري فقد أُصيبت مقاتله».

وكان أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى يحذرون من التجرؤ على الفتوى، ويهيبونها أشدّ الهيبة، فقد روى «الدارمي» في «السُنَنّ» بإسنادٍ فيه إرسال، وكان الشيخ «عبد العزيز بن باز» يقول: «أنه حسنٌ بشواهده» أنّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَجْرَؤُكُم عَلَى جهَنّم أَجرَأُكُم عَلى الفِتيَة أَجرَأُكُم عَلى النَّار**» فالمرء كُلَّما كان وقَّافًا وخوَّافًا من الفتوى والاجتهاد، كان ذلك دليلًا على تقواه لله عَزَّوَجَلَّ وسِعَةَ علمه.

وقال «**ابن أبي ليلى**»: «أدركت نحوًا من مئةٍ وعشرين من صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت إذا طُرحت المسألةُ على أحدهم أحالها على صاحبه، حتى تعود للأول، كُلُهُم لا يُجيب عليها خوفًا وخشيةً من الوقوع في هذا الباب العظيم».

إذن: الفائدة الثانية، التمذهب هو حال الوقف وعدم القدرة على النظر والاجتهاد في المسألة.

۞ **الفائدة الثالثة**: أنَّ المرء بضبط الفتوى والقضاء، فقد اجتهد العلماء الأوائل في جعل القضاء في مذهبٍ دون مذهب، ولضبط الفتوى في المسائل العلانِية الظاهرة من هذا الباب، لذلك قال «ابن عابدين» في شرح «رسم المفتي على مذهب الحنفية»: «قال أشياخنا إنَّ المرء ربّما كان حافظًا لكتب ظاهر الرواية الستة -وكُتُبِ ظاهر الرواية الستة عند الحنفية كتب «محمد بن الحسن» هي: كتاب «الجامع الصغير» و«الجامع الكبير» ، و«النكت» و«الزيادات» و«السيَر الصغير» و«السِير الكبير»- فيدخل بلدًا فيُمنعُ من الفتوى فيها»؛ بسبب

أنَّه لا يعرف عُرفهم ولا عادتهم، وهذا من الأشـياء المُهمَّة، فإنَّ الأشـياء العلمية التي يَكثُر فيها القيل والقال، وما كان من باب السـياسـة الشـرعية، والمصـلحة العامة، فإنَّ الفقهاء قديمـًا قد خصوا ذلك بأُناسٍ مخصوصين من باب ضبط القضاء، وحِفظِ الحدود، فيكون الاجتهاد فيه والاختيار مُلزمـًا ومعلومًا إلى غير ذلك من فوائد المتعددة في هذا الباب.

▪ ولكن المذموم اختصاراً في مثل هذا الأمر **مسائل**:

❁ **المسـألة الأولى**: التعصّـب لمذهبٍ بعينه، والاعتقاد أنَّ الحق في هذا المذهب دون غيره، ولا شـك أنَّ هذا غير صـحيح، بل الواجب أن يعلم المرء أنَّ هذه المذاهب إنَّما هي سـبيلٌ للوصـول للحق، وإنَّما هي اجتهادات من أربابها يرجون بها الوصـول إلى الحق، وأصـحابها بين الأجر والأجرين، كما روى «الحاكم» في «المسـتدرك» بإسـنادٍ جيدٍ أنّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِم فَأَخطَأ فلَهُ أَجر وإِذَا أَصَابَ فلَهُ أَجرَان**».

فالمقصـود: أنَّ هذا الاعتقاد بأنَّ مذهبًا من هذه المذاهب هو الصـواب على الإطلاق، وأنَّ ما عداه خطأ على الإطلاق غير صـحيح، وقد كان أهل العلم يُحَذِرُون من ذلك أشـدَّ التحذير، وقد كان هذا موجودًا عند بعض المتقدمين، فقد أَلَّف «أبو المعالي الجويني» كتابـًا بعنوان «مُغيث الحق في اختيار القول الحق»، قال فيه: «إنَّ الواجب على الناس جميعـًا في مشـرق الأرض ومغربها أن يتبعوا مذهب الشـافعي» فَرَدَّ عليه «ابن الجوزي» في كتاب أسماه «الانتصار»، فقال: «بل الحقُ أن يتَّبع أهل الأرض جميعـًا في مشرقها ومغربها مذهب الحنفية» وكِلَا القولان غير صـحيح، بل الواجب هو الدّين والاسـتسـلام لله عَزَّوَجَلَّ بهذا الدين، وإنّما مذهب «الشـافعي» و«أبي حنيفة» و«مالك» و«أحمد».. وغيره من الأئمة

المتبوعين، إنَّما هي اجتهادات فقهية يُتَوَصَّـلُ بها إلى المُراد في هذا الباب، فإلزام الناس مذهبًا على الإلزام، والقول بأنَّ ما عداه خطأ، لا شكّ ذلك مذموم باتفاق أهل العلم.

يقول «محمد الراعي الأندلسـي» في كتاب «انتصـار الفقير السـالف» قال: «وَعَجِبْتُ لبعض الفقهاء الذين تعصَّـبوا على مذهب الإمام «مالك» حينما قال: بعضـهم لا يجوز للإنس ولا الجن إلَّا أن يلتزموا مذهب كذا وكذا من أحد المذاهب الأربعة» **ويعني**: به مذهب «الشـافعي»، قد نُقل ذلك عن «ابن السـبك»، فَرَدَّ عليه «محمد بن محمد الراعي الأندلسي المالكي» وقال: «بل الصواب أنَّ المرء يتديَّن بما شاء بحسب قواعد ذَكَرَهَا أهل العلم في هذا الباب».

❁ **المسـألة الثانية**: مما هو مذموم التعصـب لمذهب، التعصـب له والغلظة على ما عداه، وهذا كان موجودًا في أعصـارٍ مضت ظاهراً بَيِّنًا، حتى كانت خصومته بين أصحاب المذاهب، في العراق مثلا في القرن السادس الهجري بين الحنابلة والشافعية، وبين الحنفية والشـافعية، وكُلٌّ يسبُّ الآخر ويذمُّه، وكُلٌّ يرفع صوته على الآخر، حتى إنَّ بعضـهم آذى الآخر في بعض الأمور، وطيَّن عليه داره.. ونحو ذلك من قصصٍ يُندى لها الجبين. **قال «أبو الوفاء ابن عقيل» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى**، ونَقَلَهُ عنه «ابن مفلح» بــ: «الفروع»: «وهذه سِـمَةٌ جُبِلت عليها النفوس، وهي التعصّـب لما بين أيديهم والتعصُّـبُ على الغير»، فالواجب على المسـلم أن يعلم أنَّ غيره على هدى بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ نعم، يعتقد المسـلم أنَّ الحق واحد، وأنَّ ما عداه ليس حقـًا، لكن من اختار قولًا غير القول الذي تقول به، إن كان اختياره له عن اجتهادٍ صحيح، أو عن تقليدٍ سائغٍ فهو بين الأجر والأجرين بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، فهو إمَّا مأجورٌ

على الصواب أو معذورٌ على الخطأ، إذا لم يتشهى ولم يتلهى باختيار هذا القول، فالواجب على المسلم أن يعلم أنَّ هذه الأقوال وهذا الأمر وهذا الاختلاف في الدّين، إنَّما هو من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وروي في الحديث لكنه غير صحيح بل هو باطل، أنَّ اختلاف أمَّة مُحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ رحمة، **قال الشيخ «مرعي بن يوسف الكرمي» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى**: «ومعنى هذا الأثر المروي صحيح، وإن كان إسناده باطلاً، فإنَّ الاختلاف رحمة»، ومِثله ذكره الشيخ «تقي الدين ابن تيمية» عليه رحمة الله و«أبو البقاء الكفوي» في كتاب «الكليات» من فقهاء الحنفية، فالاختلاف ممدوح ولكن المذموم هو الخلاف، كما في سنن «أبي داود» أنَّ «عبد الله بن مسعود» رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، لمَّا قيل له: أنكر على عثمان كذا وكذا في مسألة إتمام الصلاة في منى، قال: «الخلاف شرّ». الخلاف المذموم هو ما كان سبباً للضغينة بين المسلمين وسبباً للعداوة بينهم، وإنَّما الاختلاف الممدوح هو ما كان سبباً في الإثراء في الفقه، والاجتهاد من غير إنكارٍ على عملٍ دون الإنكار على القول، وربَّما تكلمنا عن مسألة الفرق بين إنكار القول والعمل.

أسأل الله العظيم ربّ العرش الكريم أن يمنّ علينا جميعاً بالهدى والتقى، وأن يرزقنا جميعاً الهدى وأن يرزقنا جميعا صلاح النية والذرية، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات، وأسأله جَلَّ وَعَلَا أن يرزقنا علماً نافعاً، وقلباً خاشعاً وعملاً صالحاً، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه موافقة لسنّه نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الأسئلة

سؤال: كيف الموازنة بين طلب العلم وعمل الدنيا؟

الجواب: لا شك أنَّ العلم يحتاج إلى بذلٍ للوقت:

أَخي لَن تَنالَ العِلمَ إِلّا بِسِتَّةٍ ... سَأُنبيكَ عَن تَفصيلِها بِبَيانِ
ذَكاءٌ وَحِرصٌ وَاجتِهادٌ وَبُلغَةٌ ... وَصُحبَةُ أُستاذٍ وَطولُ زَمانِ

وكما قال «**محمد بن شهاب الزهري**»: «العلم إن أعطيته كلّك أعطاك بعضه» والعلم كان في عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سهلًا مُيسرًا. **قال «علي» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «العلم نقطة كَثَّرَهُ الناس بخوضهم» فأصبح كثيراً، إنَّ المرء وُفِقَ لأمر الله عَزَّ وَجَلَّ لتحصيل العلم، وقَصَدَ بِهِ نيةً طيبة، فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ سَيَدُلُّهُ على كل خير، لذلك فليحرص المسلم أولًا على أن تكون نيته طيبةً في طلب العلم، والنية في طلب العلم مهمَّة؛ **ونقصد بنيّة طلب العلم أمور**:

❁ **الأمر الأول**: أنَّ ننوي بطلب العلم أن ينفي عن نفسه الجهالة قال «أحمد» لما سأله «أبو بكر المروزي» رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «ما النيّة في طلب العلم؟» قال: «النيّة في طلب العلم أن تنفي الجهل عن نفسك».

إذن: النية في طلب العلم أن ينوي المرء أنَّه ينفي الجهل عن نفسه، وأنَّه يؤجر في علمه، وأن يُعَلِّمَ غيره سواءً كان هذا الغير قريبًا له كزوجه أو ابنه، أو كان بعيدًا كجارٍ.. أو غير ذلك من الناس، ولكن المذموم أن يتعلَّم المرء ليُماري به السفهاء، وليتصدر به في المجالس، فمن كان قصده ذلك فإنَّه المحروم حقيقةً.

فالمرء أولًا يحرص على أن تكون نيته في طلب العلم لله عَزَّوَجَلَّ نافيًا الجهل عن نفسه لِيُعَلِّم الناس ويدُلَّهُم إلى الخير.

❁ **الأمر الثاني:** أن يحرص المرء على بذل نصيبٍ من وقته لتحصيل العلم، فإن إذا استمر على مسلكٍ واحد، وعلى طريقٍ مُستمرٍ فيه فإنَّه سيصل، وفي الصحيح من حديث «عائشة أم المؤمنين» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل مسجداً قرأ فيه حبلاً ممدودا»، فقال: «**ما هذا؟**» فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «هذا لفلانة، فذكرت من عبادتها وصلاتها وقيامها»، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَهْ، عَلَيْكُم مِنَ الأعمَالِ ما تُطِيقُوْن فإنَّ الله لا يَمَلُّ حتَّى تَمَلُّوا**» قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وكان أحب العمل إليه ما داوم عليه صاحبه» **أي:** كان أحب العمل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما داوم عليه صاحبه، وقيل وكان أحبّ العمل إلى الله عَزَّوَجَلَّ ما داوم عليه صاحبه، ولا شك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحب إلّا ما كان محبوبًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

المقصود: أنّ المداومة على العلم خيرٌ من الانقطاع عنه، فقليلٌ مستمر عليه صاحبه خير من كثيرٍ قد انقطع غير مستمر، والعلم عملية تراكمية إذا تركه المرء نسيه، لذا ذَكَرَ أهل العلم أن فروعًا من العلم كالفرائض وغيره، إنَّما هي علمُ ساعة إذا تركها المرء أيّامًا متتابعة وأشهرًا متوالية، فإنَّه ينسى هذا العلم، فلذا لابدَّ في العلم من الاستمرار، والنظر، والمباحثة، والمُدارسة، **والعلم يُنال بأربعة أمور ذَكَرَهَا أهل العلم:**

❁ **يؤخذ العلم بالأخذ عن الأشياخ وهو الأصل،** ولا يكون هذا العلم، هذا الدين إلَّا في قراءة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وإحسان إعرابه، وفي رواية سُنَّة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيان

فقهها.

۞ **الأمر الثاني: يؤخذ بالمُدارســة مع من كان مثله قرينًا،** فالمرء إذا جلس مع قرينه أو من يفوقه في العلم شـيئًا قليلًا، أو ينزل عنه شـيئًا يسـيرًا فتدارسـوا العلم، وتذاكروه، وطرح كلّ منهم على صاحبه شيئًا من المسائل، يقرأ هذا مسألة فيُنبئُ صاحبه بها، ويسمعُ الآخر مبحثًا مُعينـًا فيُخبِرُ أخاه به، فيتناقشــون به تذكرةً وتعليمًا، فإن هذا مما يتذاكر به العلم، وليس المقصــود المُجادلة والمُناظرة، فإنَّ ذلك مذمومٌ في شــرع الله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء في الحديث الذي ذكرت لكم أولًا أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَنَا زَعِيمٌ لِبَيت فِي أَوّل الجَنَّة لمَن تَرَكَ المِرَاءَ ولو كان محقًّا**».

۞ **الأمر الثالث: مما يؤخذ به العلم، أنَّ العلم يُنال بالتعليم،** فالمرء يحرص على تعليم غيره الخير، والعلم يُعلِّمُ أهله وزوجه، يُعلِّمُ أبنائه، ويُعَلِّمُ جاره.. ونحو ذلك، وقد ذكر «البركوي» من فقهاء الحنفية لمَّا ألَّف كتابـًا اســمه «ذخر المتأهلين في أحكام الحيض والنفاس»، قال: «إنَّ المقصــود بهذا الكتاب أن يتعلم الرجال أحكام الحيض ليُعَلِّمُوا أهلهم هذا الباب»، فتعليم المرء لأهله أحكام الفقهية مما تُثَبِّتُ العلم وتزيده، والعلمُ يزيدُ بالبذل، فإذا بذلت علمك، وعَلَّمتَهُ كُنت ذا خيرٍ وهُدى بأمر الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ **الأمر الرابع: الذي يُنال به العلم هو البحث في الكتب، والتفتيش في بطونها، والنظر، وتقليب النظر بين طيات صــفحاتها،** فالعلم يؤخذ بالوجادة، وما زال أهل العلم منذ القرن الثاني يأخذون العلم بالوجادة، وأعني **بالوجادة**: النظر في الكتب، فينظر المرء من كتب أهل العلم أوثقها، وأصحّها، وأقربها فهمًا، وأيسرها إدراكـًا، فيقرأ منه متسلسلًا مترتبا، لا يبتدأ

بالصعب قبل السهل، ولا بالطويل قبل القصير، فليسلك ما سَلَكَه الأوائل من الطرق المُعتمدة في هذا الباب، وكلٌّ بحسبه قُوَّةً وذكاءً وحرصًا واجتهاداً.

❁ **الأمر الثالث:** الذي أودُّ التنبيه عنه أنَّه لا تعارُض بين العلم وطلب الدنيا، فالدنيا طلبها مأجور عليه صاحبه، وقد بيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ المرء الذي يجتهد في طلب الرزق خيرٌ من الذي يمكث في المسجد متعبّدًا مُتبتلًا، والرجلان الذي كان أحدهما يُنفق على أخيه قصتهما معروفة في ذلك الأمر.

فالمقصود: أنَّ طَلَبَ الدنيا لا تَعارُض بينه وبين طلب العلم، ولكن الإغراق في طلب الدنيا والإعراض عن العلم بالكليّة هو المذموم، ولكن ليكن للمرء نصيبٌ من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ومن سُنَّة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن طريقة أهل العلم.

سؤال: لو أُعتُمِد مذهب من المذاهب في مسألةٍ على حديثٍ ضعيف فما العمل؟

الجواب: الفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى يذكرون بعض المسائل ربَّما اعتمدوا في ذلك على حديثٍ ضعيف؛ **وسبب اعتمادهم على هذا الحديث الضعيف أسباب:**

❁ **السبب الأول:** ربَّما كان نظرهم أدَّاهم إلى أنَّ هذا الحديث الضعيف صحيحٌ، أو أنَّه حسنٌ في هذا الباب، فيكون نظرهم في ذلك مُقدَّمٌ ومن الأبواب المشهورة المعروفة، طويلة النظر مسألة التعارض والترجيح بين الأدلّة، إذا تعارضت الأدلّة أيَّها يُرَجِّح وأيَّها يُقدَّم، وهذا مبحثٌ طويلٌ كُتِبَ فيه العليل مؤلفًا، فعندما يختار فقيه من الفقهاء في مسألة ما، اختياراً ما، اعتماداً على حديثٍ ضعيف، فالظنَّ به إن ظنَّ أنَّ هذا الحديث حديثٌ صحيح هذا هو إحسان الظنّ بأخيك المسلم.

❁ **السبب الثاني:** أنَّه ربَّما جهل أنَّ هناك حديثًا صحيحًا على خلاف ذلك.

❁ **السبب الثالث:** أنَّ كثيرًا من أهل العلم كما نقل «ابن القيم» يعتمدون الحديث الضعيف، إذا دلَّ القياس عليه، لذلك فإنَّ الأحاديث الضعيفة كما عليه جمهور أهل العلم المتقدمين وقد ذَكَرَ «الشافعي»: «أنَّ كثيرًا من أهل العلم على الاحتجاج بالحديث المُرسل» إنَّ الحديث الضعيف إذا كان وافق المعاني العامّة، -أعني بالقياس هنا أو قياس الجليّ دون الخفيّ الذي يوافق المعاني العامّة في الشريعة- أنَّ الأحاديث الضعيفة حُجَّةٌ ما لم يكن فيه إثباتٌ بحكمٍ جديد، أمَّا إن كان الحديث ما لم يكن فيه إثبات بحكمٍ جديدٍ مُعارضٌ للمعاني العامة للشريعة، فلذلك جمهور أهل العلم كما ذكر «ابن القيم» وأطال في ذلك، على أنَّ إعمال الحديث الضعيف حُجَّةً في ذلك، فلذلك المسلم إذا رأى في مذهبٍ مسألة معتمدًا على حديثٍ ضعيفٍ، وعَرَفَ أنَّ هذا الحديث ضعيفٌ وقد صَحَّ الحديث بخلافه، وكان ظاهر الدلالة على خلاف ذلك، فإنّه يلزمه اتباع سُنَّة المُصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لذا كان كثيرٌ من الأئمة يقول إذا جاءكم الحديث على خلاف مذهبي فاضربوا بقولي عرض الحائط، وكان الإمام «المُطَلِبي محمد بن إدريس الشافعي» -عليه رحمة الله- تَعَالَى يقول: «إذا صح الحديث فهو مذهبي» وكذلك الظنُّ بالأئمة جميعًا كما قال «ابن السبكي» في شَرح هذه الكلمة، شَرح قول الإمام «المُطَلِبي»: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»، قال: «الظنَّ بالأئمة جميعًا أنَّهم إذا صَحَّ الحديث عندهم إسنادًا، وظَهَرَ لهم دلالةً أنَّهم يذهبون إليه».

سؤال: ما سبب تسمية الإمام «مالك» رَحِمَهُ اللَّهُ تعالَى بإمام دار الهجرة؟

الجواب: السبب في ذلك ما روي في حديثٍ أنَّ عَالِم المدينة أُنزِلَ عليه إنَّ صَحَّ الحديث

في ذلك الباب.

سؤال: **هل تقبيل يد العلماء له أصل من فعل السلف؟**

الجواب: نعم، تقبيل اليد، هو ليس محرمـًا تقبيل اليد، وقد أَلَّف «أبو بكر بن العربي» أحد الرواة عن «أبي داود» كتابـًا أسـماه «القُبَل»، ذَكَرَ فيه شـيئـًا من ذلك، فَجِنسُ تقْبِيلُ اليد ليس مذمومـًا، كما أنَّ تقبيل الرأس ليس مذمومـًا، وإنَّما المذموم ما كان فيه إذلالٍ وخضوع من المرء، لذلك جاء عن بعض الصحابة أنَّه قبَّل رِجلَ أُمّه وأبيه؛ وهذا لأنَّ الوالدان لهم من الحق ما ليس لغيرهم، فلذا كل خضـوع لأجل الوالدين، وكل إذلال للناس لأجلهما إنَّما هي رفعةٌ على الحقيقة، ومن كان دون الوالدين فإنَّه لا شك لا تُقَبَّلُ رِجلاَه لسببين:

❁ **السـبب الأول**: أنَّ فيه خضـوعـًا وإنزالًا للنفس، والمرءُ مُنهيٌ عن إذلال نفسـه والخضوع في ذلك.

❁ **الأمر الثاني**: أنَّ في تقبيل الرجل هيئةً مذمومة، وخاصّـةً إذا كان المُقبل واقفـًا ولكن جنسُ التقبيل ليس مذمومًا، ليس ممنوعـًا إلّا أن يكون فيه إذلالٌ و خضوعٌ منهي عنه.

سؤال: **ما سبب تسمية كتاب الإمام «مالك» بـ الموطأ»؟**

الجواب: السـبب في ذلك أنه قال وطَّأت به أي: سـهلّتُ به العلمَ ويَسـرتُه فلذا سُـمي موطئًا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

